

# الصوت



محمّد يونس

العقل البشري...

ذلك العضو الأكثر ذكاءً وقوة، وأعظم ما ميّز الله به الإنسان عن سائر المخلوقات. به يستتير، وبه يدرك ما حوله، يفكر، يحلل، يستنتج، ثم يختار كيف يتصرف. لكنني لطالما آمنت بأن للعقل جانبًا آخر لا نراه إلا حين نعجز عن السيطرة عليه.

فنحن نظن أننا من يتحكم بعقولنا، بينما قد تكون الحقيقة أكثر تعقيدًا؛ فالعقل قادر على أن يتحكم بنا، وأن يقودنا إلى أماكن لم نخطط يومًا للوصول إليها. إنه قادر على أن يصنع عالمًا كاملاً من لا شيء. أن يخلق أوهامًا، ويخلق ذكريات، ويبنى سيناريوهات لم تحدث ولن تحدث أبدًا، ثم يقنعنا بأنها الحقيقة. وحين يصبح الإنسان وحيدًا، هشًا، ومثقلًا بما لا يستطيع مواجهته، يصبح عقله أكثر قسوة. يلتهمه بمخاوفه، يخدعه بما يؤلمه، ويضع أمامه الصورة التي يخشى رؤيتها أكثر من أي شيء آخر.

ثم لا يكتفي بذلك...

بل يجعله يصدقها.

يصدّق الوهم حتى يصبح حقيقة، ويتبعه حتى يدفع

ثمن أشياء لم تكن موجودة يومًا.

وربما لا تكون أقسى لحظة هي لحظة الضياع...

بل لحظة الاستيقاظ.

حين ينكشف كل شيء دفعة واحدة، ويسقط العالم

الذي بناه العقل، فيجد الإنسان نفسه واقفًا أمام

الحقيقة، عاجزًا عن إنكارها.

وعندها فقط يدرك كم كان عقله بارعًا في خداعه...

وكم كان هو أحمق حين صدّقه.

•  
•  
•

في ذلك اليوم، لم يعد شيء كما كان.  
لم يتغير المكان، ولم تتبدل الوجوه، ولم تتوقف عقارب  
الساعة عن الدوران... ومع ذلك، بدا وكأن الحياة نفسها  
قد انقسمت إلى نصفين؛ حياةً سبقت ذلك اليوم، وحياةً  
بدأت بعده.

انقلبت حياتهم رأسًا على عقب، وتضيبت ملامح  
المستقبل أمام أعينهم. الأشياء التي كانت بالأمس تبدو  
مؤكدًا، أصبحت اليوم مجرد احتمالات، والأبواب التي  
كانوا يظنون أنها ستظل مفتوحة، أُغلقت فجأة دون أن  
تمنحهم فرصة للاستعداد.

وربما كانت تلك هي المفارقة الأكثر قسوة في الحياة...  
أنا نعيشها كلها على هيئة احتمالات، ثم لا ندرك ذلك  
إلا عندما نخسر الشيء الذي كنا نظنه حتميًا.  
كان السواد يملأ المكان.

لا سواد الليل فحسب، بل ذلك السواد الذي يسكن  
القلب حين يعجز الإنسان عن رؤية ما سيأتي بعد  
لحظته الحالية.

في أحد أركان المستشفى، كان والدا سيلين يجلسان جنبًا إلى جنب، لكن المسافة بينهما بدت أبعد من أي وقت مضى.

لم يتحدث أيُّ منهما.

لم يكن هناك ما يمكن قوله.

فمنذ أن وصلهما الخبر، فقدت الكلمات معناها.

ابنتهما تعرضت لحادث.

والآن ترقد في مكان ما خلف ذلك الباب، غائبة عن

العالم، معلقة بين الوعي والغياب.

غيوبة.

كلمة واحدة كانت كافية لتحويل كل مخاوفهما إلى

واقع.

لم يكونا هناك حين وقع الحادث.

لم يريا شيئًا بأعينهما، ولم يعرفا تفاصيل ما حدث إلا

من الكلمات القليلة التي أخبرهما بها الأطباء.

ومع ذلك، بدأ عقلهما يفعل ما يفعله العقل حين  
يعجز عن احتمال المجهول.  
أخذ يملأ الفراغات.

صنع لهما صورًا لم يراها، ومشاهد لم يعيشها،  
وتفاصيل لم يخبرهما بها أحد.  
كلما أغمضا أعينهما، تخيلا ما حدث.

كيف كانت سيلين؟

ماذا شعرت؟

هل كانت خائفة؟

هل نادتهما؟

هل كانت بحاجة إليهما؟

أسئلة بلا إجابات، لكن العقل لم يكن بحاجة إلى إجابة  
كي يصنع لها ألف احتمال.

وكان كل احتمال أكثر قسوة من الذي سبقه.

أما آدم...

فكان الأمر مختلفًا.

لم يحتج عقله إلى اختلاق المشهد.

لقد كان هناك.

راها.

رأى الحادث بعينه، وحفظت ذاكرته تلك اللحظات

بطريقة لم يستطع الهرب منها.

منذ ذلك اليوم، لم يعد آدم يملك رفاهية النسيان.

كان المشهد يعود إليه دون استئذان.

في الصباح.

قبل النوم.

وسط حديثه مع الآخرين.

وفي أكثر اللحظات التي يحاول فيها أن يبدو طبيعيًا.

كلما أغمض عينيه، أعاد عقله المشهد من البداية.

ثم يعيده مرة أخرى.

وكأن هناك جزءًا منه يرفض أن يصدق أن ما حدث قد

انتهى.

كان يحب عيني سيلين.

ولذلك ربما كان أكثر ما يؤلمه أن آخر صورة ظلت عالقة  
في ذاكرته عنها لم تكن كما أراد أن يتذكرها.  
كان يتمنى لو استطاع أن يمحو ذلك اليوم من رأسه.  
لكنه لم يستطع.

وهكذا، بينما كان جسد سيلين ساكنًا خلف أبواب  
المستشفى، كان عقلها في مكان آخر تمامًا.  
مكان لا يعرفه والداها.  
ولا آدم.

ولا الأطباء.

مكان صنعته ذاكرتها من أجزاء متناثرة من حياتها، وملأته  
بما أرادت أن تصدقه، لا بما حدث حقًا.  
لكن...

هل ما قرأتموه حتى الآن هو الحقيقة؟  
هل كان ذلك اليوم فعلًا كما وصفناه؟  
هل كانت تلك المشاهد ذكريات حقيقية، أم أن العقل،  
حين يعجز الإنسان عن مواجهة الحقيقة، يستطيع أن  
يكتب روايته الخاصة؟  
ربما كانت الأحداث كما قرأتموها تمامًا.  
وربما...

لم يحدث شيء مما قرأتموه.  
وربما كان هناك عقلٌ آخر في مكان ما، يعيد ترتيب كل  
شيء الآن...

ويقرر لكم ما الذي يجب أن تصدقوه .

هل أنتم الآن ضحية هذا العقل ؟

## سيلين :

يستيقظ الناس عادةً على صوت العصافير، وتسلك أشعة الشمس الدافئة عبر النوافذ، وربما على رائحة إفطار شهية تتسلل إلى حواسهم قبل أن تفتح أعينهم. هذا ما أتخيله دائماً عندما أسمع كلمة الصباح وما أشعر به عندما يقول أحدهم لآخر: (صباح الخير). لكن...

صباحي ليس هكذا تماماً.

صباحي يبدأ بصوت أمي.

صرختها وهي توقظني من نومي، تطلب مني أن أنهض بسرعة لأساعدتها في أعمال المنزل. وإذا تأخرت قليلاً، لا تنتظر حتى أسأل عن السبب. تضربني.

بالمعنى الحرفي للكلمة.

حتى أصبح جسدي مألوفاً للكدمات أكثر مما هو مألوف للراحة.

أحيانًا أراقب آثارها على جلدي وأحاول أن أقنع نفسي بأنها  
ستختفي.

وهي تختفي فعلاً.

لكن ما لا يختفي هو ما تتركه في داخلي.

في ذلك الوقت، يكون أبي عادةً منشغلاً بالاستعداد للذهاب  
إلى عمله.

وكالعادة...

لا يمر الصباح دون شجار بينه وبين أمي  
لا أعرف كيف يبدأ الأمر، ولا لماذا يبدأ أصلاً، لكنني أعرف  
دائمًا كيف ينتهي  
صوتان مرتفعان  
كلمات قاسية

ثم يأتي دوري، رغم أنني لم أكن طرفًا في شيء  
يشتمني أبي دون سبب، وتفرغ أمي غضبها عليّ وكأنني  
المسؤولة عن كل ما يحدث بينهما  
وأنا؟

أصمت.

أكبت دموعي.

أبتلع غصتي.

وأحاول ألا أظهر أي شيء.

ليس لأنني قوية.

بل لأنني تعلمت منذ وقت طويل أن ضعفي أمامهما لا  
يجعلني أكثر أمانًا.

بل يجعلهما أقسى.

لذلك تعلمت كيف أخفي ألمي.

كيف أبتسم حين أريد البكاء.

كيف أقول «أنا بخير» بينما كل شيء في داخلي يصرخ  
بعكس ذلك.

أبغض أذى أمي الجسدي لي.  
أبغضه بكل ما أملك.

لكن، بطريقة ما، كان أهون من الأذى الآخر...

ذلك الأذى الذي لم تتركه على جسدي، بل زرعته في أعماق  
نفسي.

كلماتها.

نظراتها.

إهاناتها.

ذلك الشعور الدائم بأنني غير مرغوبة، وغير كافية، وأن  
وجودي نفسه عبء على من حولي.

مرت السنوات، وتلك الأشياء الصغيرة التي ظننت أنها  
ستتسى

مع الوقت، بدأت تتجذر في داخلي.  
حتى لم أعد أعرف أيًّا منها كان صوت أمي...  
وأيتها أصبح صوتي أنا.  
وربما كانت تلك هي المشكلة الحقيقية.  
أنني لم أعد بحاجة إلى أحد ليخبرني بأنني سيئة.  
كنت قد تعلمت كيف أفعل ذلك بنفسني.

انتهيت من العمل المعتاد وذهبت إلى غرفتي لأغير  
ثيابي، فتحت الخزانة وأخذت أتأمل ما بداخلها  
للحظات قبل أن أختار ما سأرتديه، رغم أنني في  
الحقيقة لا أحتاج إلى الكثير من الوقت في التفكير،  
فأنا لا أملك سوى ثلاث قطع من الملابس، ولهذا  
لا يوجد الكثير لأختار بشأنه. أحيانًا أتمنى لو كانت  
خزائني ممتلئة بالملابس كما أرى في الصور،  
فساتين جميلة وألوان مختلفة وأحذية وحقائب،  
أتمنى لو كنت أستطيع أن أتزين مثل بقية  
الفتيات، أضع بعض مستحضرات التجميل أمام  
المرآة، أعتني بشعري وبجسدي، وأعيش شبابي  
كما ينبغي لفتاة في عمري أن تعيشه.

لكنني في كل مرة أفكر بهذه الأشياء أشعر بالسخرية من نفسي، فأنا أبغض فكرة أن أحلامي هي واقع يعيشه الكثيرون دون أن يشعروا بقيمته، وهذا ما يجعلني أكره نفسي أحيانًا بسبب تفاهة أحلامي وأمنياتي، لماذا أتمنى شيئًا عاديًا إلى هذه الدرجة؟ لماذا أشعر بأن امتلاك بعض الملابس أو مستحضرات التجميل أو الخروج من المنزل دون خوف حلم بعيد المنال؟

دون أن أشعر، سقطت دمعة على وجنتي، تبعثها أخرى، فمسحتها سريعًا يدي وكأنني أخجل منها، رغم أنها كانت رفيقتي الوحيدة التي لم تتخل عني يومًا. كانت تزورني في كل مرة يعجز فيها قلبي عن تحمل ما يحدث، تنساب دافئة على وجنتي وكأنها تحاول مواساتي بطريقتها الخاصة، وربما لهذا السبب لم أعد أحاول منعها، فقد اعتدت وجودها حتى أصبحت جزءًا من أيامي.

لكن صوت والدي قاطع حبل أفكاري، فعرفت من نبرته أنه عاد إلى المنزل، ولم تمض سوى لحظات حتى بدأت مشاجرته المعتادة مع أمي. كنت أسمع أصواتهما من خلف الباب، وكالعادة لم أكن بحاجة إلى معرفة السبب، فالعمل والمال والديون أصبحت جزءًا ثابتًا من خلافاتهما، كان عمل أبي لا يدرّ ما يكفي، والديون أخذت تتراكم فوق بعضها حتى أصبحنا نعيش وكأن مشكلة جديدة تنتظرنا كل يوم، وكان أبي يلوم أمي أحيانًا، وأمي ترد عليه، ثم يتحول الحديث إلى صراخ لا ينتهي.

لكن هذه المرة كان هناك صوت آخر.

توقفت عن الحركة وأنا أصدق بالباب، فمن هذا؟ لم يكن صوت أمي ولا صوت أبي، وكان وجود شخص غريب في المنزل أمرًا لم أعتده. اقتربت من الباب ببطء وفتحته قليلًا، فقط بالقدر الذي يسمح لي بالنظر إلى الخارج دون أن يلاحظني أحد.

رأيت رجلًا يقف أمام والدي، كان وجهه قاسيًا والغضب واضحًا في عينيه، ورغم أنه كان يتحدث بالعربية، إلا أنني لم أستطع فهم كل ما يقوله، ليس لأن كلماته كانت غريبة، وإنما لأنني شعرت بأن الخوف شلّ قدرتي على التفكير، وكل ما استطعت فعله هو النظر إلى والدي.

كان أبي ضعيفًا أمامه بطريقة لم أرها من قبل، لم يكن ذلك الرجل الذي اعتدت أن أخشاه عندما يرفع صوته عليّ، بل بدا وكأنه فقد كل قوته، حتى صوته تغير عندما قال له: «أرجوك، أعطني مهلة، أقسم لك أنني سأدفع لك قريبًا، فقط امنحني بعض الوقت.»

نظر إليه الرجل للحظات وكأنه يزن كلماته، ثم قال  
برود: «سأمهلك شهرًا، لا أكثر من ذلك، وإذا تأخرت  
فسوف تندم، ولا تنس اتفاقنا.»

ثم استدار وغادر المنزل، وبقي أبي واقفًا في مكانه  
للحظات، يحدق في الباب الذي خرج منه الرجل وكأنه  
لم يستوعب ما حدث، وبعدها التفت إلى أمي.  
في تلك اللحظة رأيت شيئًا لم أراه من قبل، رأيت أمي  
ترتعد خوفًا، كانت تحاول أن تبدو صامدة أمامه لكنها  
لم تستطع إخفاء الخوف من عينيها، أما أبي فكان  
الغضب يزداد في وجهه، وكأنه يبحث عن شخص يفرغ  
فيه كل ما يحمله داخله.

تقدم نحوها، وتراجعت هي خطوة إلى الخلف، وعندها  
شعرت بشيء سيئ سيحدث، تمنيت لو أستطيع  
الخروج من الغرفة وإيقافه، تمنيت لو أملك الشجاعة  
الكافية لأقف بينهما، لكنني بقيت في مكاني خلف الباب،  
عاجزة حتى عن تحريك قدمي.

ثم انقض عليها أبي ليفرغ غضبه، لم يكن غاضبًا منها بقدر ما كان غاضبًا من نفسه ومن فشله ومن حياته التي خرجت عن سيطرته، لكنه اختارها لتكون الضحية، وكأنها المسؤولة عن كل شيء. كنت أراقب ما يحدث وأنا أشعر بالعجز، وفي داخلي خليط غريب من الخوف والشفقة والغضب.

اشفقت على أمي رغم كل ما فعلته بي، ورغم أنها كانت الجلاد الذي اعتدت أن أخاف منه، لكنها في تلك اللحظة لم تكن سوى أمي، امرأة ضعيفة أمام رجل فقد السيطرة على نفسه. وفي الوقت نفسه كرهت أبي كثيرًا، كيف يستطيع أن يفعل ذلك بزوجته؟ كيف يستطيع أن يلومها على شيء لم يكن لها يد فيه؟ كنت أراه يفرغ غضبه من نفسه عليها، من فشله وعجزه وسوء قراراته، لكنها هي من دفعت الثمن.

ظل يلهث بغضب وكأنه يحاول إخماد نار اشتعلت داخله،

ثم تركها أخيرًا وخرج من المنزل، وأغلق الباب خلفه بعنف.

لم أعد أستطيع السيطرة على مشاعري، فخرجت من غرفتي واندفعت نحو أمي، سبقتني دموعي وأنا أراها على تلك الحال، اقتربت منها وجلست بجانبها وقلت بصوت مرتجف: «أمي... هل أنت بخير؟ أرجوكِ دعيني أساعدك.» كنت أعلم أنها ليست بخير، فلماذا سألتها إذا؟ ربما لأن الإنسان أحيانًا يسأل عن شيء يعرف إجابته مسبقًا، فقط لأنه يتمنى أن يسمع إجابة مختلفة.

مددت يدي نحو كتفيها لأساعدها على النهوض، لكنها دفعت يدي بعيدًا بعنف، ثم رفعت رأسها ونظرت إليّ، ولم أفهم ما رأيته في عينيها حينها، هل كان غضبًا؟ ألمًا؟

أم أنها كانت تبحث عن شخص تلقي عليه كل ما  
بداخلها؟

صرخت في وجهي: «كل ما يحدث لنا هو بسببك! منذ  
اليوم الذي أتيت فيه إلى حياتنا وأنت تفسدينها! عديمة  
الفائدة، حمقاء وتعيسة... أتمنى لو أنني متُّ قبل أن  
أنجب فتاة مثلك.»

توقفت الكلمات في حلقي، شعرت وكأن شيئاً انكسر  
بداخلي في تلك اللحظة، لم أستطع الرد عليها ولا حتى  
الدفاع عن نفسي، فقط بقيت أنظر إليها وأنا أحاول  
استيعاب ما قالت، ثم وقفت بصعوبة واتجهت نحو  
غرفتها، وتركتني جالسة على الأرض وحدي.  
لم أعد أشعر بشيء، أو ربما كنت أشعر بكل شيء في  
الوقت نفسه، كان داخلي فراغ كبير رغم أنني كنت ممتلئة  
بالكثير من الألم والأسئلة التي لم أجد لها إجابة.

إلى متى سيبقى حالي هكذا؟ هل سيتغير شيء يومًا؟ هل  
سأستيقظ ذات صباح وأجد أن حياتي أصبحت مختلفة؟  
وهل سأجد يومًا شخصًا يحبني دون أن يجعلني أشعر  
بأنني عبء عليه؟

ثم جاء السؤال الذي لطالما خفت من التفكير فيه: هل  
اقتربت ذنبًا لمجرد أنني وُلدت؟

خففت رأسي واحتضنت ركبتي، وتركت دموعي تسقط  
دون أن أحاول مسحها هذه المرة، وفي داخلي أمنية  
واحدة فقط، تمنيت لو كان بإمكانني الهرب من هذا  
المكان، من هذا البيت، من هذه الحياة... ولو ليوم واحد  
فقط.

تلك الليلة لم تتم عيناى، بكيت كثيرًا حتى انقطعت  
أنفاسى وشعرت وكأن صدري لم يعد يتسع لكل ذلك  
الألم، ولكن هذه المرة حتى الدموع لم تستطع أن  
تخفف شيئًا، كأنها أدركت قبلى أن بعض الأوجاع لا  
تُغسل بالبكاء مهما طال، وأن هناك لحظات في حياة  
الإنسان لا تعود بعدها الأشياء كما كانت أبدًا.

كانت تلك الليلة نقطة تحول في حياتي، ليس لأن شيئًا  
تغير من حولي، بل لأن شيئًا تغير بداخلي، وكأني  
استيقظت في منتصف الليل لأكتشف أن الجزء الذي كان  
يقاوم كل شيء قد تعب أخيرًا. أصبحت أتحرك بلا رغبة،  
أتحدث بلا اهتمام، ميتة بلا مشاعر، أسير بلا وجهة،  
أعيش بلا مأوى واسع بلا هدف، وكأني جسد يؤدي ما  
اعتاد عليه بينما روحي تقف في مكان آخر، تراقبني من  
بعيد ولا تعرف كيف تعيدني إليها.

نوعًا ما أشعر بالاستسلام، فقدت كل السبل والدوافع  
للاستمرار، ليس لأنني لم أحاول، بل لأنني حاولت كثيرًا،  
وبررت أكثر، ومنحت الفرص التي لم أكن أملك رفاهاية  
منحها، وفي كل مرة كنت أخسر جزءًا مني ثم أحاول  
ترميمه، أقنع نفسي بأن الغد سيكون أفضل، وأن الصبر  
لا بد أن يؤتي ثماره يومًا، وأن الأشياء السيئة لا يمكن أن  
تستمر إلى الأبد.

لكنها استمرت.

بل ازدادت سوءًا.

حتى وصلت إلى مرحلة لم أعد أملك فيها شيئاً أرممه، لأنني كنت قد استهلكت نفسي كلها في محاولة إصلاح أشياء لم تكن بيدي أصلاً، وهنا أدركت أن الإنسان قد يقضي عمره وهو يحاول إنقاذ حياته، ثم يكتشف متأخراً أنه كان يخسر نفسه في الطريق.

ربما لهذا السبب أصبحت أؤمن بأن كل شيء في هذه الحياة قابل للخسارة، ممتلكاتنا، منازلنا، عائلاتنا، أصدقاءنا، الأشخاص الذين نظن أنهم سيقون معنا إلى الأبد، وحتى الأشياء التي نعتقد أنها جزء ثابت من أيامنا، كل شيء قابل لأن يتغير أو يرحل أو يأخذ منا مكانه شيء آخر.

والغريب أننا نعرف ذلك.

نعرف منذ البداية أن لا شيء دائم، ومع ذلك نتعلق، ونحب، ونخطط، ونبنى أحلامنا وكأن الحياة وعدتنا بأن تمنحنا ما نريد إلى الأبد، ثم حين تأخذ منا شيئاً نحبه، نتفاجأ وكأنها خانت اتفاقاً لم تعقده معنا يوماً. ربما الإنسان لا يتألم لأنه فقد الأشياء، بل لأنه كان يؤمن أنها لن تُفقد.

نحن لا نحزن على الرحيل وحده، بل على المستقبل الذي  
تخيلناه مع من رحل، وعلى الأيام التي ظننا أننا سنعيشها  
ولم تأتِ، وعلى النسخة من أنفسنا التي كانت موجودة قبل  
أن نعرف معنى الخسارة.  
لكن هناك خسارة مختلفة عن كل شيء.  
خسارة ذاتك.

هذه ليست كخسارة منزل تستطيع أن تبني غيره، ولا  
كخسارة شخص تستطيع أن تتعلم كيف تعيش بدونه، ولا  
كخسارة شيء تستطيع الأيام أن تعوضك عنه بآخر.  
حين تخسر نفسك، من سيعوضك عنك؟  
من سيعيد إليك رغبتك التي انطفأت؟ من سيعيد لك ذلك  
الجزء الذي كان يفرح بالأشياء الصغيرة؟ من سيقنعك بأن  
الأحلام التي كنت تركض خلفها تستحق كل ذلك التعب  
بعدما أصبحت تنظر إليها ولا تشعر تجاهها بشيء؟  
خسارة نفسك لا يمكن تعويضها بسهولة، وربما لا يمكن  
تعويضها أصلاً.

لأنك حين تفقدها، لا تخسر حاضرك فقط، بل تخسر  
معنى كل ما فعلته في الماضي.  
ستبدأ بالنظر إلى كل كفاحاتك السابقة وكأنها كانت بلا  
معنى، وستحتقر كل جهد بذلته للوصول إلى مكان كنت  
تظن يومًا أنك ستجد فيه السعادة، وستكتشف أن الأشياء  
التي كنت تتمنى امتلاكها بشدة لم تكن عظيمة كما ظننت.  
ليس لأنها تغيرت...

بل لأن الشخص الذي كان يمنحها قيمتها قد تغير.

فالشئ لا يصبح ثمينًا بذاته دائمًا، نحن من نمنحه قيمته،  
نحن من نضع أحلامنا عليه، ونربطه بآمالنا، ونخبر أنفسنا  
أن امتلاكه سيجعلنا سعداء.

وحين نفقد أنفسنا، تتساقط تلك المعاني واحدة تلو  
الأخرى.

قد تصل إلى ما تمنيت يومًا، ثم تنظر إليه ولا تشعر بشيء.  
قد تمتلك ما قضيت سنوات تحلم به، ثم تكتشف أن  
الحلم كان أجمل من امتلاكه، لأن الذي كان يلوّن ذلك  
الشئ في عينيك لم يكن هو...  
بل أنت.

وهنا تكمن المأساة الحقيقية.

أن تصل أخيرًا إلى كل ما أردته، ثم تكتشف أنك لم تعد  
الشخص الذي أرادته.

أن تنظر إلى الطريق الطويل الذي قطعته، إلى كل الدموع  
والتعب والانتظار، ثم تسأل نفسك: من أجل ماذا فعلت  
كل ذلك؟

وعندها فقط تفهم أن الإنسان لا يحتاج دائمًا إلى أن  
يخسر العالم حتى يشعر بأنه خسر كل شيء.  
يكفي أن يخسر نفسه...  
فتصبح كل الأشياء التي بقيت حوله بلا لون، وبلا طعم،  
وبلا غاية.

في الرابع من شهر مايو، قررت الخروج من المنزل،  
ربما لأنني شعرت بأن بقائي بين تلك الجدران لن  
يفعل سوى زيادة احتتائي، وربما لأنني كنت بحاجة  
إلى رؤية شيء آخر غير الوجوه التي اعتدت عليها، لعل  
الهواء في الخارج يخفف شيئًا من الثقل الذي استقر  
في صدري منذ فترة طويلة.

كنت أكره الخروج في السابق، ليس لأنني أكره  
الشوارع أو الناس، بل لأنني كنت أخجل من نفسي،  
من ثيابي التي أرتديها مرارًا وتكرارًا، من جسدي  
النحيل، ووجهي الشاحب وملامحي الذابلة التي أشعر  
وكأنها تخبر كل من يراني بأنني لست بخير، والأسوأ  
من ذلك كله هو ذلك الشعور المزعج بأن الجميع  
يصدق بي، يلاحظون كل شيء أحاول إخفاءه،  
ويتساءلون في داخلهم عن سبب مظهري.

لكنني في ذلك اليوم لم أعد أهتم حقًا بما أبدو عليه، أو ربما لم يعد لدي ما أخسره حتى أهتم.

خرجت من غرفتي ووقفت عند الباب، ثم قلت لأمي التي كانت في مكان قريب مني: «أنا سأخرج قليلًا.»

رفعت أمي رأسها ونظرت إليّ، وبقيت تحقق بي لثوانٍ دون أن تقول شيئًا، كان في نظرتها شيء غريب، شيء لم أعتده منها، ثم قالت بنبرة هادئة ومبهمة: «انتبهي على نفسك.»

رمشت عدة مرات.

توقفت للحظة وكأنني لم أفهم ما سمعته للتو، نظرت إليها من جديد، لكن ملامحها تغيرت، أو ربما أنا التي تغيرت، فقد عادت نظرتها القاسية المعتادة، ثم قالت ببرود: «انصرفي، اذهبي واريحيني من وجهك الذي يجلب التشاؤم دومًا.»

بقيت أتحقق بها للحظات.

نعم، الآن أعرف أمي.

هذا هو صوتها الذي اعتدت عليه، وهذه هي كلماتها التي حفظتها عن ظهر قلب، لكن الغريب أنني للحظة شعرت بأن ما سمعته منها قبل ثوانٍ كان حقيقيًا، وكأنها قالت لي فعلاً «انتبهي على نفسك.»

هل تخيلت ذلك؟

لم أشعر بأنه مجرد خيال، بل كان أشبه بشعور غريب مرّ

بي من قبل، شيء يشبه الـ «Déjà vu»

« التي قرأت عنها في أحد المقالات، ذلك الشعور الذي

يجعلك تشعر بأنك عشت اللحظة الحالية سابقًا، رغم

أنك تعرف منطقيًا أن ذلك مستحيل.

هزرت رأسي محاولة طرد الفكرة من عقلي، ثم ارتديت

حذائي وخرجت.

بدأت أمشي.

ومشيت.

ومشيت دون أن تكون لدي وجهة محددة.

كنت فقط أريد الابتعاد عن المنزل، وكأن المسافة بيني

وبينه تستطيع أن تصنع مسافة أخرى بيني وبين كل ما

يؤلمني.

مرت نصف ساعة.

ثم ساعة كاملة.

بدأ التعب يتسلل إلى قدمي، وعندما رفعت رأسي وجدت  
أمامي، على بعد نحو خمسين مترًا، حديقة صغيرة تقع  
وسط أحد الأحياء، بدت مهمة ومنسية، وكأن أحدًا لم  
يهتم بها منذ زمن طويل.  
قررت الذهاب إليها.

جلست على أحد المقاعد ورفعت رأسي نحو الأشجار،  
كانت بعض الأزهار متناثرة بين الأعشاب، والهواء يحرك  
الأغصان بهدوء، وعلى الرغم من أن المكان لم يكن جميلًا  
بالمعنى الذي قد يصفه الناس، إلا أنني شعرت براحة  
غريبة فيه.

ربما لأنني وجدت شيئًا يشبهني.

شيئًا لم يكن مثاليًا، لكنه كان ما يزال واقفًا.

بعد فترة شعرت بالعطش، فنظرت حولي ولاحظت متجرًا  
صغيرًا يقع بالقرب من الحديقة، بدا قديمًا إلى حد ما،  
واجهته باهتة اللون، وكأنها واجهت سنوات طويلة من  
المطر والثلوج والرياح حتى فقدت بريقها.  
ابتسمت في داخلي وقلت لنفسِي: «يا لها من مصادفة...  
أنا أشبهها.»

دخلت المتجر، فوجدت شابًا يقف خلف المنضدة، يبدو في  
منتصف العشرينات تقريبًا، كان مقبول المظهر، لكن أكثر  
ما لفت انتباهي هو وجهه البشوش، كانت ابتسامته هادئة  
وغير متكلفة.

قلت في نفسي إنه يبدو لطيفًا.

ثم سألت نفسي مباشرة: وكيف عرفت ذلك وأنت لم

تتحدثي معه من قبل؟

تجاهلت الفكرة واتجهت نحو الثلاجة، أخذت علبة ماء باردة

ثم توجهت نحو الباب.

لكن قبل أن أخرج، سمعت صوته خلفي.

«هل أنتِ جديدة في المنطقة؟»

توقفت.

التفت إليه باستغراب، وكأنني لم أعتد أن يوجه أحد إليّ

حديثًا دون سبب، ثم نظرت إليه للحظات قبل أن أجيب

بتوتر: «ن... نعم، أقصد... لا.»

رفع حاجبه قليلًا ثم ضحك ضحكة خفيفة.

«نعم أم لا؟»

شعرت بالإحراج وقلت بسرعة: «لا أعرف... ربما نعم.»

ابتسم وقال: «لماذا أنتِ متوترة هكذا؟ اعتذر إن كنت

أزعجتك.»

هزرت رأسي بسرعة: «لا، لا عليك، أنا بخير.»  
دفعت ثمن الماء وغادرت المتجر دون أن أقول شيئاً آخر،  
ثم عدت إلى الحديقة وجلست على المقعد نفسه، فتحت  
علبة الماء وارتشفت منها، وبقيت أهدق أمامي وأنا أفكر في  
ذلك الحوار القصير.

لم يكن شيئًا مهمًا.

مجرد شاب سأل فتاة إن كانت جديدة في المنطقة.  
لكن بالنسبة لي، كان الأمر مختلفًا.

ربما لأنني لم أعتد أن يهتم أحد بوجودي أصلًا.

بعد ذلك اليوم، أصبحت أخرج من المنزل كل يوم تقريبًا،  
وأسير دون وجهة حتى أصل إلى تلك الحديقة الصغيرة  
المنبوذة، ثم أجلس هناك لبعض الوقت قبل أن أعود.  
شيئًا فشيئًا، أحببت المكان.

لم أفهم لماذا، لكنه أصبح المتنفس الوحيد الذي أملكه،  
المكان الوحيد الذي أشعر فيه أنني أستطيع أن أتنفس  
دون أن أخشى أن يسمع أحد صوت أفكاري.

ومع مرور الأيام، أصبح وجه ذلك الشاب مألوفًا بالنسبة  
لي.

آدم.

في البداية كان يكتفي بإلقاء السلام عندما يراني في الحديقة، ثم بدأ يجلس معي أحيانًا عندما يكون متجره هادئًا، وشيئًا فشيئًا أصبحنا نتبادل أطراف الحديث، نتحدث عن أشياء بسيطة جدًا، عن الطقس، عن الحي، عن الكتب أحيانًا، وعن أشياء لا قيمة لها في نظر أي شخص آخر، لكنها كانت بالنسبة لي كافية لأشعر بأن يومي أصبح أقل ثقلًا. لم أكن معتادة على ذلك.

لم أعتد أن يسألني أحد كيف كان يومي، أو أن ينتبه لوجودي، أو أن يتذكر شيئًا قلته في حديث سابق. ولهذا بدأت أعتقد أن آدم يهتم لأمرى. لكنني كنت أجهل شيئًا مهمًا.

ربما لم يكن ذلك اهتمامًا خاصًا بي أصلًا.

ربما كان آدم هكذا مع الجميع.

ربما كانت تلك طبيعته، ومن شيمه أن يكون لطيفًا مع من حوله، ولم يكن في الأمر شيء مميز كما تخيلت.

لكن الإنسان الذي لم يعتد شيئاً، يبالغ في تقديره حين يجده.

من لم يعتد الحب، قد يظن أن أبسط مظاهر اللطف حب عظيم.

ومن لم يلقَ الاهتمام من أقرب الناس إليه، قد يبحث عنه في أبعد الأماكن، ويتعلق بأول يد تمتد إليه، لا لأنها اليد التي ستتقذه، بل لأنه لم يعرف في حياته كيف يكون الشعور حين يهتم بك أحد.

وربما لهذا السبب كنت أبحث عن الحب خارج نفسي.

كنت أظن أنني أحتاج شخصًا آخر كي أشعر بأنني جديرة بالحب، ولم أفهم حينها أن أكثر شخص كنت بحاجة إلى أن أحصل على حبه واهتمامه كان أنا.

فالحب الذي يأتي من الآخرين جميل، لكنه لا ينبغي أن يكون الشيء الوحيد الذي يمنحنا قيمتنا.

لأن الإنسان إن جعل قيمته معلقة بوجود شخص آخر، أصبح رحيله قادرًا على إسقاطه بالكامل.

وربما لهذا يقال دائمًا: تألم لتتعلم.

فالحياة لا تمنحنا دروسها بالكلمات، بل بالأشياء التي تأخذها منا، وبالأشخاص الذين ترحل بهم، وبالأبواب التي تغلقها في وجوهنا، وبالأيام التي تجعلنا نتساءل لماذا يحدث كل هذا لنا.

لكنني تعلمت لاحقًا أن الحياة ليست ضدنا شخصيًا.

هي فقط لا تعرفنا بما يكفي لتتعلم إيذاءنا.

نحن من نمح الأحداث معنى، ونقرر إن كانت خسارتنا نهاية أو درسًا، وإن كان الألم عقابًا أو طريقًا لفهم أنفسنا. وأحيانًا...

لا يكون أصعب ما في الدرس هو أن نتعلمه.

بل أن ندرك أننا كنا بحاجة إليه منذ البداية.

أحببت آدم كثيرًا، وربما كانت هذه أول مشكلة حقيقية واجهتها معه، لأنني في الوقت ذاته كنت أكرهه، أو بالأحرى كنت أكره ما أصبح يفعله وجوده بي. لا أستطيع وصف ما أشعر به تمامًا، فالحب بالنسبة لي كان شيئًا غريبًا لم أتعلم كيف أتعامل معه، والخوف كان الشيء الوحيد الذي أعرفه جيدًا.

خشيت أن أمنحه قلبي وكياني وكل ما تبقى مني، ثم يؤذيني كما فعل أقرب الناس إليّ، كنت أخاف أن أسمح له بالاقتراب حتى يجد أكثر الأماكن هشاشة بداخلي، ثم يرحل تاركًا إياي أتعامل مع الخراب وحدي. وفي الوقت ذاته، كنت أخاف أن أفعل العكس، أن أصده وأدفعه بعيدًا وهو في الحقيقة يحبني، فقط لأنني لم أستطع فهمه.

كنت أجهل الحب.

أجهل أشكالي.

أجهل كيف يبدو حين يكون صادقًا، وكيف يبدو حين يكون مجرد وهم نصنعه لأنفسنا.

وهذا ما كان يخيفني أكثر من أي شيء آخر، أن أخسره بسبب خوفي، ثم أقضي ما تبقى من حياتي ألوم نفسي لأنني لم أكن شجاعة بما يكفي لأبقى.

أعلم أن الوضوح كان الحل الوحيد لمعضلتي، وأن كلمة واحدة صادقة ربما كانت قادرة على إنهاء كل هذه التساؤلات التي تأكلني، لكنني في الوقت ذاته لم أرد الصراحة.

لم أرد الحقيقة.  
أردت الوهم.

نعم، أردته بكل ما في الكلمة من معنى.

أردت أن أختار ما أريد تصديقه، أن أشكل الحقيقة بالطريقة التي تناسبني، ثم أعيش داخلها حتى تصبح أوهامي أقرب إليّ من الواقع نفسه. كنت أعرف أن السؤال قد يجرحني، وأن الإجابة ربما تهدم كل ما بنيته، ولهذا فضلت الصمت.

الصمت مؤلم، لكنه أحيانًا أقل رعبًا من الحقيقة.  
فالحقيقة تنهي الاحتمالات.

أما الوهم، فيترك لك دائمًا مساحة صغيرة لتأمل أن الأمور ربما ستكون كما تريد.

لا أعلم إن كان آدم هو من يجرحني، أم أنني أنا من أفعل ذلك بنفسي..

ربما لم يعطني وعدًا أصلاً.

ربما لم يقل يوماً إنه يحبني.

لكنني بنيت أحلامًا كاملة حول وجوده، وصنعت داخل عقلي حياة لم أتأكد يوماً من أنها ممكنة. تخيلت حديثًا،

مستقبلنا، قربه مني، وكيف سيكون كل شيء عندما يدرك أنني الشخص الذي يريد البقاء معه.

بنيت مبنى كاملاً.

لكنني بنيته على أرض غير ثابتة.

وفي كل مرة يفعل فيها آدم شيئاً لم أتوقعه، كنت أشعر باهتزاز ذلك المبنى، وأقف بداخله مذعورة، أتساءل إن كان سينجو هذه المرة أم سينهار.

إما أن تتوقف الاهتزازات وينجو كل من في المبنى... أو ينهار كل شيء.

لكن الحقيقة المؤلمة كانت أنني لم أكن أخاف على أحد. لم يكن هناك أحد معي أصلاً.

كنت وحدي داخل ذلك المبنى.  
أنا وحدي من بنيته.  
وأنا وحدي من قرر أن يسكن فيه.  
وأنا وحدي من سيُدفن تحت أنقاضه إن سقط.  
دخلت في دوامة لا أعرف كيف أخرج منها، كنت أتمنى أن  
يكون آدم مصدر أمان لي، أن يكون ذلك المكان الذي أعود  
إليه حين أتعب من العالم، أن يكون راحة وسكونًا، شيئًا  
جميلًا وسط كل ما أعيشه.  
لكنه أصبح مصدر خوفي.  
قلقي.  
وتعاستي.  
كنت أنتظر منه شيئًا لا أعرف إن كان يستطيع تقديمه،  
وأغضب منه لأنه لم يحقق توقعات لم أخبره عنها يومًا.  
كنت ألومه على أحلام صنعتها أنا، وأتألم لأنه لم يعش  
الدور الذي كتبته له داخل رأسي.

وربما كان أكثر ما يؤلمني أنني كنت أقول إنه أطفأني.  
مع أنني لم أكن أملك بريقًا من الأساس.  
كنت فقط أتمنى أن يضيئي.  
ولا زلت أتمسك به.

أتمسك بفكرة أن كل شيء سيتغير، وأني ربما أبالغ في  
التفكير، وأن خوفي هو من يجعل الأمور تبدو أسوأ مما هي  
عليه، وأن يومًا ما سيحدث شيء يثبت لي أن كل تلك  
الأحلام لم تكن مجرد أوهام.  
يومًا ما سيفهمني.

يومًا ما سيقترّب أكثر.  
يومًا ما سيصبح كل شيء كما تخيلته.  
يومًا ما...

توقفت عند هذه الكلمات.  
يومًا ما؟

كم مرة استخدمت هذه العبارة لأخدع نفسي؟  
كم مرة انتظرت مستقبلاً مجهولاً لأهرب من واقع لا أريد  
مواجهته؟

«يومًا ما» ليست وعدًا.

وليست خطة.

وأحيانًا لا تكون سوى مكان نضع فيه أحلامنا كي لا نشعر  
بأنها ماتت.

نقول إن كل شيء سيتحسن يومًا ما، وننتظر.

ونقول إن الشخص سيتغير يومًا ما، وننتظر.

ونقول إننا سنصبح سعداء يومًا ما، ثم ننتظر أكثر.

وفي أثناء ذلك...

تمر الأيام.

ونكبر.

ونتعب.

ونخسر أجزاءً من أنفسنا.

ثم نكتشف متأخرين أن ذلك الـ«يومًا ما» الذي انتظرناه

طوال حياتنا...

لم يكن يومًا موجودًا أصلًا.  
ربما كان عليّ أن أسأل نفسي سؤالًا مختلفًا.  
ليس: متى سيتغير آدم؟  
ولا: متى سيتحقق ما أتمنى؟  
بل...

إلى متى سأظل أنتظر شخصًا لم يطلب مني يومًا أن  
أنتظره؟

إلى متى سأظل أتمسك بمن لا يحاول التمسك بي؟  
حقيقة، كان آدم لطيفًا معي، وهذا بالضبط ما جعل الأمر  
أكثر تعقيدًا.

لم يكن شخصًا سيئًا، ولم يعاملني بقسوة أو يحاول إيدائي، بل على العكس، كنت أشعر في البداية براحة غريبة عندما أكون بقربه، وكأن وجوده وحده قادر على إسكات جزء صغير من الضجيج الذي لا يتوقف داخل رأسي. أحببت الحديث معه، وأحببت ضحكته وطريقته في الكلام، وأصبحت أهتم بمعرفة أدق تفاصيله، الأشياء التي يحبها والتي يكرهها، ما الذي يجعله سعيدًا، وما الذي يزعجه، كيف يقضي يومه، وماذا يفعل عندما يختفي. كنت ألاحظ كل شيء يتعلق به. ربما أكثر مما ينبغي.

كنت أتذكر الأشياء الصغيرة التي يقولها لي عرضًا، وأعود لأفكر بها لاحقًا، بينما هو لم يكن يعرف الكثير عني، ليس لأنني كنت أخفي نفسي عنه دائمًا، بل لأنه ببساطة لم يكن يسأل.

لم يسألني يومًا كيف كان يومي إلا نادرًا، ولم يحاول أن يعرف ما الذي أحبه أو ما الذي أخاف منه، ولم يهتم بتلك التفاصيل الصغيرة التي كنت أرى أنها الطريقة التي نعرف بها مكانتنا في حياة الآخرين.

كنت أتساءل أحيانًا، ماذا لو وقعت أمامه وتأذيت؟

هل سيسألني إن كنت بخير؟

أم سيمد يده ليساعدني ثم يرحل وكأن شيئًا لم يحدث؟

وماذا لو مرضت ولم آتِ إلى الحديقة لعدة أيام؟

هل سيلحظ غيابي أصلًا؟

هل سيسأل عني؟

هل سيتساءل أين اختفيت؟

لم أكن أعرف الإجابة، وربما كان جزء مني يخاف معرفتها.

لكنني كنت أعرف ماذا كنت سأفعل لو اختفى هو.

كنت سألاحظ.

كنت سأنتظر.

وسأسأل عنه.

وكنـت أفعل ذلك فعلاً.

كلما اختفى آدم أو لم أره لفترة، كنت أشعر بالقلق، وأبدأ بالتفكير في كل الاحتمالات، هل حدث له شيء؟ هل هو بخير؟ هل يمر بمشكلة؟ هل هناك شيء أزعجه؟ كنت أبحث عن إجابة لغيابه، بينما غيابي أنا لم يكن يبدو وكأنه يترك أي سؤال خلفه.

ومع ذلك، كان هناك شيء يجعلني أعود في كل مرة. أحياناً كان يهتم.

أو على الأقل كنت أشعر بأنه يهتم.

كان يقول شيئاً لطيفاً، أو يجلس معي لفترة أطول من المعتاد، أو يتذكر شيئاً صغيراً قلته له سابقاً، فيعود الأمل إليّ وكأنني كنت أنتظر تلك اللحظة منذ أيام.

مجرد اهتمام بسيط منه كان قادراً على محو عشرات اللحظات التي شعرت فيها بأنني لا أعني له شيئاً. وكنـت أكره نفسي بسبب ذلك.

كيف يمكن لكلمة واحدة منه أن تجعلني سعيدة إلى هذا الحد؟

كيف يمكن لتصرف بسيط أن يعيد إليّ كل الأمل الذي حاولت دفنه؟

كنت أتعلق من جديد.

ثم...

يختفي.

يعود إلى حياته وكأنني لم أكن جزءًا منها يومًا، وكأن وجودي وغيابي لا يصنعان أي فرق، فأبقى وحدي أتساءل إن كنت قد تخيلت كل ذلك مرة أخرى. ربما كان لطيفًا فقط.

ربما كانت ابتساماته مجرد ابتسامات.

ربما كانت كلماته مجرد كلمات.

وربما أنا وحدي من قرر أن يمنحها معنى أكبر مما تستحق. كنت أبني من اهتمامه الصغير عالمًا كاملاً، ثم يختفي هو، فيسقط ذلك العالم فوق رأسي.

وفي كل مرة كنت أقول لنفسي إنني لن أتعلق مجددًا، كان يعود بلطفه المعتاد، ويعيد إليّ الأمل، فأقنع نفسي بأن هذه المرة مختلفة.

لكنها لم تكن مختلفة.

غالبًا كانت الحقيقة أمامي منذ البداية، واضحة أكثر مما أردت الاعتراف به.

فالشخص الذي يحبك لا يجعلك تقضي كل هذا الوقت في محاولة معرفة إن كان يحبك أم لا.

المحب لا يتركك في منتصف الطريق وأنت تتساءل إن كنت تعني له شيئًا.

لا يجعلك تشعر بأنك عبء حين تقترب، ولا فراغًا حين تختفي.

ربما يتردد الإنسان في أشياء كثيرة، ربما يخاف، وربما يخطئ، لكنه حين يحب بصدق لا يجعلك تشعر وكأنك تقاتل وحدك من أجل وجودك في حياته.

لكنني لم أكن أعرف ذلك حينها.

أو ربما كنت أعرفه، لكنني لم أكن مستعدة للاعتراف به.

كنت أريد أن أصدق النسخة التي صنعتها عن آدم أكثر من آدم الحقيقي.

ولم أعرف الإجابة الأكثر صراحة إلا بعد أن واجهته. عندها فقط، لم أعد مضطرة للتخمين.

لم أعد بحاجة إلى تفسير صمته.

ولا إلى اختراع الأعذار لغيابه.

لأن بعض الإجابات لا تأتي على هيئة كلمات.

أحيانًا تكون الإجابة واضحة في كل مرة تختفي فيها من حياة شخص، ولا يحاول أن يبحث عنك.

وأحيانًا...

يكون عدم التمسك بك هو أوضح طريقة ليخبرك بأنه لم يكن يريد البقاء من البداية.

في أثناء حدوث كل تلك الصراعات في داخلي، لم تتوقف الخلافات والتهميش من قبل والدِّي، بقي كل شيء على حاله تقريبًا، الكلمات القاسية من أبي، والأذى الذي اعتدت عليه من أمي، والخوف الذي أصبح جزءًا من يومي حتى كدت أنسى كيف تكون الحياة من دونه، ولكنني بطريقة ما شعرت بأن الأمر أصبح أقل سوءًا.

أو ربما أنا التي أصبحت أقل اكتراثًا.

فقد أصبح تركيزي، وكامل حواسي، مع آدم وتصرفاته،  
أراقب وجوده وغيابه، كلماته ونظراته، وأبحث في أبسط  
تفاصيله عن شيء يثبت لي أنني مهمة بالنسبة له. وكل مرة  
كنت أتلقي فيها كلمة سامة من أبي أو أذى من أمي، كان  
هناك صوت صغير بداخلي يريت على قلبي ويخبرني بأن هذا  
العذاب مؤقت، وأني لن أبقى هنا إلى الأبد، وأني يومًا ما  
سأخرج من هذا المنزل، وسأتزوج آدم، وسأبدأ حياة أخرى،  
حياة لا أعرف فيها الخوف ولا الصراخ ولا الحاجة إلى  
الاعتناء.

كنت أعيش على ذلك الوهم.

وكان جميلًا.

أحلام وردية حقًا، وربما لهذا تمسكت بها أكثر مما ينبغي،  
لأن الإنسان حين يعجز عن احتمال واقعه، يصبح مستعدًا  
لتصديق أي مستقبل يعده بالخلاص.

اليوم هو الحادي والثلاثون من شهر تموز، ويصادف اليوم الأخير من المهلة التي منحها ذلك الرجل لوالدي بعد أن أقرضه المال.

لا أعرف إن كان أبي قد استطاع جمع المبلغ أم لا، فقد أصبحت أجهل الكثير مما يحدث في المنزل منذ بدأت أتردد على الحديقة وأقضي معظم وقتي خارجًا، وكأنني انسحبت تدريجيًا من حياتي الحقيقية إلى حياة أخرى صنعتها لنفسي.

والحقيقة أنني لم أعد أشعر بأن عقلي في حالته الطبيعية. أصبحت أرى أشياء غريبة. أهلوس أحيانًا، أو هكذا أظن.

ذات مرة رأيت آدم أمامي، رأيته يتسم ويصارحني بحبه، كان صوته واضحًا إلى درجة جعلت قلبي يكاد يخرج من صدري، لكن عندما رمشت وعدت إلى وعيي لم أجده هناك. لم يكن هناك أحد.

وقفت وحدي في الحديقة، أحاول أن أفهم ما حدث، وأنا  
أسأل نفسي إن كنت قد رأيته فعلاً أم أن عقلي قرر أن  
يمنحني للحظات ما كنت أتمنى سماعه.

لا أعرف ما الذي يحدث لي.  
ربما كل هذا لأنني كبت الكثير.  
كثيراً جداً.

دفنت غضبي وخوفي وحزني، ابتلعت الكلمات التي أردت  
قولها، وتظاهرت بالقوة حتى نسيت كيف يكون التعبير عن  
ضعفي، وربما حين تعجز المشاعر عن الخروج من الإنسان،  
تجد لها طريقاً آخر.  
لكنني لن أصمت هذه المرة.

سأبوح بكل ما في داخلي، حتى لو كانت الحقيقة مؤلمة،  
وحتى لو كانت الإجابة التي سأحصل عليها هي آخر شيء  
أريد سماعه.

خرجت من غرفتي وتوجهت نحو الباب، لم أخبر أحدًا إلى أين سأذهب، ولم أهتم حتى إن كان أحدهم سيلاحظ خروجي. وقبل أن أفتح الباب، أوقفني أبي فجأة. قال بصوت حاد: «إلى أين؟ ألم يعد لك كبير في هذا المنزل؟»

توقفت.

لم ألتفت إليه.

للمرة شعرت أنني واقفة عند حافة شيء لا أعرف كيف أعود منه، شيء ظللت أقرب منه يوميًا بعد يوم دون أن أدرك ذلك.

لم أعد أملك القدرة على ابتلاع المزيد.

استدرت نحوه أخيرًا، لكنني لم أستطع حتى النظر إليه جيدًا، فقد ارتفع صوته فجأة، واختلطت كلماته بصوت أفكاري، فلم أعد أميز إن كان يوبخني أو يشتمني أو يقول شيئًا آخر. كل شيء أصبح ضجيجًا.

صرخ.

وتجمد جسدي للحظة.

ثم فتحت الباب وخرجت.

ركضت دون أن ألتفت خلفي، ودون أن أهتم بما سيحدث

عندما أعود، كنت أريد فقط الوصول إلى المكان الوحيد

الذي شعرت فيه أنني أستطيع التنفس.

الحديقة.

حديقتي الصغيرة.

حديقتي السحرية التي تطل على متجر آدم العجوز.

وصلت إليها وأنا ألهث، ثم دخلت المتجر.

كان هناك.

جالسًا في مكانه المعتاد، والبسمة تعلو محياه.

وما إن رأني حتى ابتسم أكثر.

لم أتمكن من منع نفسي من مبادلته ابتسامته، رغم كل ما

كان يؤلمني، ورغم كل الأسئلة التي أرهقتني، لأنني لم

أستطع أن أصدق أن ذلك البريق الذي أراه في عينيه عندما

ينظر إليّ لا يعني شيئًا.

اقتربت منه، وشعرت بأن قلبي يرتجف قبل أن أبدأ بالكلام.  
«آدم...»

رفع عينيه نحوي.

ابتلعت ريقِي، ثم قلت بصوت بالكاد خرج مني: «أنا لا  
أستطيع كبت مشاعري أكثر، ارحمني... وأرحني.»  
سكت قليلاً، ثم أكملت قبل أن أفقد شجاعتي: «لم أعد  
أريد الحفاظ على كبريائي معك، لأنه أكثر شيء آذاني. هل  
أنا فعلاً لا أشغل بالك حتى لثانية واحدة في يومك؟ ألا  
تهتم بما أشعر به؟ بما أمر به؟ بما أفكر فيه؟ ألا تلاحظ كم  
تغيرت؟»

كنت أنظر إلى عينيه وكأنني أنتظر منه أن ينقذني من كل ما  
قلته.

كنت أريد كلمة واحدة فقط.

أي كلمة.

شيئاً أستطيع أن أعود إليه عندما أكون وحدي.  
لكن آدم بقي صامتاً.

طال صمته حتى بدأت أشعر بأنني ندمت على كل كلمة  
خرجت مني.

ثم قال بهدوء بارد: «لا.»

شعرت بأن شيئًا داخلي انطفأ.

أكمل: «لا أفكر بك كما تظنين، ولا أملك الوقت لألاحظ  
كل شيء يحدث معك. وبصراحة يا سيلين... أنا لا أكرث.»  
لم أستطع الرد.

بقيت أنظر إليه وأنا أحاول استيعاب ما قاله.

ثم أضاف، وكأنه يحاول أن يجعل الأمر أكثر وضوحًا: «أنا  
شخص عديم الرحمة، ومجرد من المشاعر، فلا تبني آمالك  
عليّ.»

ضحكت ضحكة قصيرة خرجت مني دون إرادة، لكنها لم تكن ضحكة حقيقية.

كانت أشبه بشيء ينكسر.

قلت له: «وأنا لم أعد قادرة على تحمل كل هذا، لا أستطيع حتى اختراع الأعذار لك بعد الآن. قيدتني وأفلتتني في الوقت ذاته، جعلتني أتعلق بك ثم تختفي، تجعلني أشعر بأنني مهمة بالنسبة لك ثم تعود وكأنني لم أكن موجودة أصلاً. كيف أثرت عليّ إلى هذه الدرجة؟»

ارتجف صوتي وأنا أكمل: «أنا أيضاً أعاني يا آدم، أنا أيضاً لدي أشياء كثيرة أهرب منها، لكنني رأيتك الأمل الذي أستطيع التمسك به، رأيت فيك شيئاً يجعلني أصدق أن هناك حياة أخرى يمكن أن أعيشها. أنت لم تزر أفكاري يوماً... لأنك كل ما أفكر به أصلاً.»

خفض آدم رأسه قليلاً.

كنت أراقبه وأنتظر.

ربما سيقول شيئاً.

ربما سيتراجع.

ربما سيخبرني أن ما قاله لم يكن حقيقياً.  
لكنه رفع عينيه نحوي وقال ببرود لم أكن مستعدة له: «لا  
تفكري بي، ولا تشغلي بالك بي حتى.»  
انتهى كل شيء.  
هكذا ببساطة.

نظرت إليه بخيبة أمل لم أعرف كيف أخفيها، ولأول مرة  
شعرت بهذا النوع من الكسرة، تلك التي لا تأتي من كلمة  
قاسية فقط، بل من انهيار شيء كامل بنيته داخل نفسك  
لوقت طويل.

لم أعرف إن كان الألم بسبب آدم نفسه، أم بسبب شفقتي  
على نفسي، أم بسبب كل الآمال التي علقتها عليه ثم رأيتها  
تسقط أمام عيني.

ربما لم أحب آدم وحده.  
ربما أحببت الحياة التي تخيلتها معه.

الحياة التي كنت أهرب إليها كلما أصبحت حياتي الحقيقية أقسى من احتمالي.

شعرت وكأنني فقدت آخر طيف من طفولتي، آخر جزء كان لا يزال يصدق أن الأشياء الجميلة تحدث لمجرد أننا نستحقها، آخر شيء نقي ورقيق بداخلي.

خرجت من متجره بلا روح.

كان بإمكانني أن أصرخ، أن أعاتبه، أن أسأله لماذا فعل بي ذلك، لكنني لم أفعل.

كنت فقط أريد منه أن يناديني.

أن يقول اسمي.

أن يقول إنه خائف مثلي.

أنه عاجز.

أنه بائس.

أنه لا يعرف كيف يحب، لكنه يحبني.

انتظرت.

ثانية.

ثانيتين.

لم يحدث شيء.

لم ينادني.

لم يركض خلفي.

لم يتغير شيء.

خرجت من المتجر والدموع تسيل على وجنتي، ومشيت  
دون أن أعرف إلى أين أذهب، وكأن قدمي تعرفان الطريق  
أكثر مني.

كنت أشعر بأن العالم من حولي بعيد، الأصوات مكتومة،  
والوجوه غير واضحة، والشارع أمامي بدا وكأنه يتعد كلما  
حاولت الوصول إليه.

ثم سمعت صوتًا مرتفعًا يقترب.

رفعت رأسي.

وفي اللحظة التالية، لم أعد أعرف ما الذي حدث.

صوت بوق حاد.

ضوء أبيض خاطف.

ثم...

لا شيء.

فقط ظلام.

ظلام طويل لم أعرف كم استمر.

وفي مكان ما خلف ذلك الظلام، كان هناك صوت يناديني

باسمي.

لكنني لم أكن أعرف بعد...

هل كان ذلك الصوت حقيقيًا؟

أم أن عقلي، الذي قضيت عمري أهرب إليه، كان قد بدأ

أخيرًا بكتابة قصته الخاصة؟

يولد الإنسان نقيًّا، لا يحمل على روحه ذنبًا ولا  
خطيئة، جاهلاً بما تخبئه له الأيام من عثراتٍ  
وانكسارات، وبما ينتظره من طرقٍ ملتوية وتجارِبٍ  
تثقل القلب. ومع ذلك تمضي الحياة في عزفٍ  
معزوفتها الفريدة، فتولد من كل تجربة روحٌ  
جديدة، ومن كل سقوط نسخة أخرى من الإنسان  
ذاته.

كل محنةٍ أو خيبةٍ أو تجربةٍ تترك أثرًا خفيًّا في  
النفس، تغَيِّر شيئًا من ملامحها الداخلية. والعجيب  
أن هذا التغيير، مهما تشابهت أسبابه، لا يتشابه بين  
البشر؛ فلكل إنسان طبيعته التي تحكم نظرته للألم  
وطريقته في احتماله. لذلك يظن المرء أن ما أصبح  
عليه لم يكن إلا قرارًا اتخذه بإرادته، بينما كان في  
الحقيقة حصيلة ما مرَّ به من أحداثٍ وصراعاتٍ  
خفية.

وما من إنسان إلا وأثقلته الحياة يومًا، واستنزفته حتى ظن أنه لم يعد يملك ما يمنحه لها. هناك من يرى في الشدائد دروسًا تُصقل الروح وتزيد لها قوة، وهناك من يخرج منها فاقداً لجزءٍ من نفسه، مؤمناً أن هشاشته لن تسمح له بالمحاولة مجدداً. فيختار البقاء أسير جراحه، عاجزاً عن مصالحة واقعه، تائهاً في عزلةٍ طويلة يسير فيها بلا وجهةٍ واضحة. ومغريات الحياة لا تنفذ؛ فهي تعرف مواطن النقص في النفوس، وتغري الإنسان بما يفتقده أكثر مما يحتاجه. فيسعى وراء ما يظنه اكتمالاً، بينما يدفعه نقصه إلى أخطاء قد تؤذيه وتؤذي من حوله. ثم تأتي لحظة الندم، فينهار تحت وطأة ما اقترفت يداه، لكنه سرعان ما يمسح دموعه ويقنع نفسه أن ما حدث كان مستحقاً أو لا مفر منه.

وهكذا تمضي الأيام، ويمضي الإنسان معها، يركض  
خلف رغباته وأحلامه، ويعيش الحياة كما أرادها،  
غير مدرك أن لكل فعلٍ ثمنًا، ولكل خطيئةٍ حسابًا لا  
يضيع. فيبقى متخبطًا بين ما يشتهي وما ينبغي، بين  
شجاعةٍ قد تهلكه وحكمةٍ قد تنقذه، حتى تأتي الأيام  
بما أخفته خلف ستارها، فتكشف الحقائق التي  
طال انتظارها.

فالإنسان، مهما بلغ من القوة أو الحكمة، يبقى كائنًا  
يبحث عن نفسه في طرقٍ لا يعرف نهايتها، ويظل  
يسير بين النور والظلمة حتى يدرك أن أعظم  
معاركه لم تكن مع العالم من حوله، بل مع النفس  
التي تسكنه.

سيلين... سيلين، استيقظي.»

تسلل الصوت إلى وعيي من مكان بعيد، في البداية لم أستطع تمييزه، كان كل شيء ثقيلًا وضبابيًا، وكأني أحاول العودة إلى جسدي بعد غياب طويل، ثم فجأة شهقت شهقة عالية وانتفض جسدي بعنف، ارتفع صدري وانخفض بسرعة شديدة، وأخذت أتنفس وكأني كنت أركض منذ ساعات، بينما قلبي يخفق بجنون وكأنه لا يزال عالقًا في شيء لم ينتهِ بعد.

فتحت عيني بالكامل.

كانت أمي أمامي.

بقيت أهدق بها دون أن أفهم، ثم أخذت أنظر حولي ببطء، سريري، خزانتي، الستائر، الجدران، كل شيء مألوف، كل شيء أعرفه، ومع ذلك كان هناك شيء في داخلي يرفض أن يطمئن.

لم أفهم لماذا.

كان شعورًا فقط.

شعور غريب بأنني رأيت هذه الغرفة منذ زمن بعيد،  
أو أنني غبت عنها أكثر مما ينبغي، وكأنني عدت إلى  
مكان أعرفه جيدًا بعد رحلة لا أتذكر كيف بدأت ولا  
كيف انتهت.

حاولت أن أتذكر آخر ما حدث.  
جاءتني الحديقة أولاً، ثم آدم، وجهه، متجره، صوته،  
تلك النظرة التي لا تزال تؤلمني، ثم خروجي وأنا  
أبكي، الطريق، الأصوات، ذلك البوق المرتفع،  
وبعدها...

لا شيء.

ظلام.

لكن الغريب أنني لم أكن أحتاج إلى تذكر كل شيء  
لأشعر بما حدث.

كان الخوف لا يزال في جسدي.

والخذلان لا يزال عالقًا في صدري.

والوحدة... كانت هناك، راسخة في داخلي بطريقة  
جعلتني أشعر وكأنني حملتها معي من مكان بعيد.

كنت أتذكر الشعور أكثر مما أتذكر الحدث نفسه.

أعرف أنني كنت خائفة.

أعرف أنني كنت وحيدة.

أعرف أنني بكيت كثيرًا.

أعرف أن شيئًا ما كسرني.

لكن حين حاولت الإمساك بالتفاصيل، بدأت الصور  
تتداخل.

وجه أبي.

صوت أُمي.

باب يغلق.

صرخة بعيدة.

غرفة مظلمة.

يد تمتد نحوي.

ثم تختفي.

كنت أراها للحظات، واضحة بما يكفي لأصدقها، ثم  
ما إن أحاول التحديق فيها حتى تتلاشى، وكأن  
ذاكرتي لا تمنحني سوى لمحات سريعة من شيء لا  
تريدني أن أصل إليه.  
لم أكن أعرف إن كانت تلك الأشياء قد حدثت فعلاً  
أم أنني فقط أتخيلها الآن.  
ولم أشعر بالخوف من ذلك بقدر ما شعرت بالحيرة.  
فأنا أعرف أنني عشت حياة قاسية، أو على الأقل كنت  
أشعر بقسوتها في كل جزء مني، حتى لو لم أستطع  
الآن استحضار كل تفاصيلها.  
ثم اقتربت أُمي مني.  
وفجأة احتضنتني.  
تجمد جسدي للحظة.  
لم أبادلها العناق مباشرة، بقيت بين ذراعيها ساكنة،  
أحرق أمامي ولا أعرف ما الذي جعلني أتوقف هكذا.  
كان العناق دافئاً.  
مطمئناً.

ورغم ذلك شعرت بشيء غريب.  
شيء صغير جدًا، مبهم، لم أستطع الإمساك به.  
لم أعرف لماذا استغربت احتضانها لي.  
لم أعرف ما الذي كان يفترض أن أشعر به.  
فقط شعرت أن هذا الدفء مألوف وغريب في  
الوقت ذاته، وكأن جزءًا مني يعرفه، بينما جزء آخر لا  
يعرف كيف يتعامل معه.  
ابتعدت عنها ونظرت إلى وجهها.  
كانت عيناها ممتلئتين بالحب والحنان، وملامحها  
هادئة، حتى أنني للحظة شعرت بأني ربما كنت  
مخطئة في شيء لا أعرف ما هو.  
لكن ذلك الشعور اختفى قبل أن أستطيع فهمه.  
قالت لي بصوت حنون: «ما بك حبيتي؟ لا تقلقي،  
إنه مجرد كابوس.»  
كابوس.  
ترددت الكلمة في رأسي.

ربما كان كذلك.

لكن لماذا كان جسدي يشعر بأنه عاش شيئًا حقيقيًا؟

لماذا لا يزال قلبي يؤلمني؟

لماذا أشعر بأنني فقدت شيئًا لا أعرف اسمه؟

حاولت أن أتذكر.

رأيت آدم.

ثم الحديقة.

ثم نفسي وأنا أبكي.

ثم صورة أخرى لم أعرف إن كانت حقيقية، رأيت أمي

أمامي وهي غاضبة، ثم اختفت الصورة قبل أن أستطيع

سماع ما تقوله.

رمشت عدة مرات.

لم أعد أراها.

ربما لم تحدث أصلًا.

ربما كانت مجرد بقايا الحلم.

أخبرتني أمي أن أنهض وأغسل وجهي وأتناول الإفطار،

وأنا سنحتفل معًا بنجاح مشروع أبي.

مشروع أبي؟

توقفت الكلمة في داخلي

شعرت بأن شيئًا ما تحرك في ذاكرتي.  
رأيت للحظة رجلًا غريبًا يقف في منزلنا، ورأيت أبي  
أمامه، لكن الصورة كانت باهتة، بعيدة، كأني أنظر  
إليها من خلف ستارة كثيفة، ثم اختفت قبل أن  
أتمكن من فهمها.

لم أعد أعرف إن كانت ذكرى أم خيالًا.  
لكن الشعور الذي تركته كان واضحًا.  
الخوف.

خرجت أُمي من الغرفة، وبقيت وحدي.  
جلست على طرف السرير وأنا أحاول أن أستوعب ما  
يحدث، ثم التقطت هاتفًا لأعرف كم من الوقت  
نمت.

الثلاثون من شهر تموز.

حدقت في التاريخ.

الثلاثون.

شعرت بشيء يسقط في داخلي.

كنت أظن أنني كنت في الحادي والثلاثين.

كنت أذكر ذلك بوضوح.

أو هكذا ظننت.

تذكرت اليوم، لكن ليس كل تفاصيله، بل الشعور الذي

تركه في داخلي؛ ذلك اليأس، تلك الكسرة، ذلك

الإحساس بأن شيئاً انتهى.

أما الأحداث نفسها فكانت تأتي متقطعة، بعضها

واضح وبعضها كأنه حلم بعيد.

لماذا أشعر أنني عشت يومًا لم يأت بعد؟

هل عدت بالزمن؟

هل منحني القدر فرصة أخرى؟

أم أنني فقط أتمسك بفكرة مستحيلة لأنني لا أملك

تفسيرًا آخر؟

وربما...

ربما لم أعد أصلًا.

ربما كل هذا جزء من شيء آخر.

شيء صنعه عقلي ليمنحني حياة مختلفة عن تلك التي  
عشتها.

لكن إن كان كذلك، فلماذا أشعر بهذا الدفء؟  
لماذا يبدو صوت أُمي مألوفًا إلى هذا الحد؟  
ولماذا أشعر بأن هناك شيئًا ناقصًا في ذاكرتي، شيئًا  
أحاول الوصول إليه دون أن أعرف ما هو؟  
وضعت يدي على رأسي وأغمضت عيني.  
لم أستطع تذكر كل شيء.  
لكنني كنت أشعر بكل شيء.  
الخوف.

الحزن.

الوحدة.

الحب.

والفقد.

كلها كانت تسكنني وكأنها حقائق لا تحتاج إلى ذاكرة  
لتثبت وجودها.

فتحت عيني ونظرت إلى الغرفة من جديد.  
كانت هادئة.

طبيعية.

وكان شيئًا لم يحدث.  
لكنني كنت أعرف أن شيئًا ما حدث.  
لا أعرف ماذا.

ولا متى.

ولا أي جزء منه كان حقيقة.

وذلك ما أخافني أكثر من أي شيء آخر.

لأنني لأول مرة شعرت أن ذاكرتي لم تعد مكانًا أستطيع  
الوثوق به.

لم تكن تكذب عليّ بوضوح...

كانت فقط تتركني أتساءل.

تمنحني صورة، ثم تسحبها.

تتركني أشعر بالألم، دون أن تخبرني من أين جاء.

وكان عقلي يعرف الحقيقة كاملة...

لكنه لم يكن مستعدًا لأن يعطيني إياها دفعة واحدة.

نهضت من السرير وغسلت وجهي جيدًا، بقيت للحظات  
أمام المرآة أتأمل انعكاسي وكأنني أراه للمرة الأولى،  
كنت أبدو بصحة جيدة، اختفت الهالات والشحوب  
اللذان كانا واضحين على ملامحي، لم أعد أرى تلك  
الفتاة الذابلة التي اعتدت رؤيتها، بل فتاة أخرى تبدو  
وكأنها عاشت حياة مختلفة تمامًا.  
لا أفهم شيئًا حقًا.

فجأة، صدح ضجيج غريب من جميع الجهات، شعرت  
وكأن رأسي سينفجر من شدة الألم، وضعت يدي عليه  
وحاولت التركيز على ما يقال، لكن كلما حاولت تمييز  
الأصوات ازداد الألم حدة.

«حركت يدها!»

«يا طيبة، حركت سيلين يدها!»

«ستستيقظ قريبًا... ستستيقظ من الغيوبة.»

الحمد لله... لك الحمد يا الله.»

توقفت يداي عن الحركة.

كانت الأصوات واضحة.

ومألوفة.

صوت أمي.

وصوت أبي.

و...

آدم.

غيبوبة؟

هل أنا في غيبوبة؟

لكن إن كنت في غيبوبة، فأين أنا الآن؟

هل أنا داخل رأسي؟

داخل ذكرياتي؟

هل هذه الحياة التي أعيشها الآن ليست سوى شيء

يحتفظ به عقلي؟

فتحت صنبور المياه وبقيت أغسل وجهي مرارًا وتكرارًا، كأن

الماء قادر على إعادة كل شيء إلى مكانه، كأني إن غسلت

وجهي بما يكفي سأستيقظ من هذا الحلم، أو ربما أتوقف

عن الاستيقاظ منه.

هل أنا الآن داخل ذكرياتي إذا؟

هل هذه هي الحقيقة التي كانت موجودة طوال الوقت؟  
أخذت شهيقًا طويلًا وزفيرًا أبطأ، ثم قررت الخروج  
لمواجهة والديّ.

فتحت باب الغرفة، ومشيت ببطء نحو الخارج.

رأيت أمي تضحك وتتبادل الحديث مع أبي، كان أبي سعيدًا  
للمغاية، وبدأت ملامحه مختلفة عن الصورة التي اعتدت  
الاحتفاظ بها عنه، كان يتحدث بحماس عن صفقة عمل  
ناجحة، بينما كانت أمي تستمع إليه بسعادة.

توقفت عند الباب أتأملهما.

أتأمل ملامحهما.

أتأمل تفاصيل المنزل.

ذلك الدفء.

ذلك الأمان.

تلك الحنية التي شعرت بها في مكان ما سابقًا.  
شعور قديم جدًا، كان يسكنني دون أن أعرف من أين جاء.  
انتبه أبي لوجودي.  
رفع عينيه نحوي.  
ثم ركض باتجاهي.  
احتضنني.  
تجمدت في مكاني.  
رأيت هذه اللحظة من قبل.  
لم تكن مجرد فكرة.  
لم تكن شعورًا.  
كانت ذكرى.  
وفجأة...  
بدأ كل شيء يعود.

ليس دفعة واحدة، بل كقطع صغيرة كانت مبعثرة داخل  
رأسي، بدأت تتجمع أمامي.  
الآن تذكرت.

الآن فهمت.  
تذكرت أبي الحقيقي.  
وأمي.

تذكرت هذا المنزل.  
تذكرت الدفء الذي كنت أشعر به هنا.  
تذكرت أنني كنت محبوبة.

تسمرت في مكاني، لم أستطع مبادلة أبي العناق، ليس  
لأنني لم أرد ذلك، بل لأن الصدمة كانت أكبر من قدرتي  
على الحركة.

لكن عيناى فعلتا ما عجزت عنه يداى.  
امتلاأنا بالدموع.

وشعرت بغصة تخنق حنجرتى.

كنت أريد أن أقول له إنني آسفة.  
آسفة لأنني صدقت تلك الذكريات.  
آسفة لأنني كرهته داخل عالم لم يكن حقيقيًا.  
آسفة لأنني لم أتذكره كما كان.  
لكن قبل أن أستطيع قول أي شيء، قاطع تلك اللحظة  
الحنونة صوت رنين الهاتف.  
قالت أمي: «سيلين، ردي على هاتفك، إنه محبوبك آدم.»  
نظرت إليها.  
محبوبي؟  
رفعت الهاتف ببطء وأجبت.  
وصلني صوته.  
«سيلين، حييتي، أين أنت؟ أنتظرُك عند الضفة المقابلة  
للحديقة، هل نسيتِ اتفاقنا؟»

أغمضت عيني للحظة.  
لا أعلم يا آدم... لا أتذكر شيئًا إلا عندما أصل إليه، للتو  
تذكرت والديّ الحقيقيين... تذكرت أنهما يحباني ويهتمان  
لأمرني  
ساد الصمت للحظات.  
ثم وصلني صوته مجددًا.  
«ألو؟ سيلين؟»  
فتحت عيني.  
«آه... نعم يا آدم، أنا قادمة حاليًا.»  
أغلقت الهاتف.  
ثم نظرت إلى أبي بعناية.  
إلى وجهه.  
إلى ابتسامته.  
ثم التفت إلى أمي.  
كم تمنيت لو بقيت هنا.  
كم تمنيت لو استطعت أن أحتفظ بهذه اللحظة إلى الأبد.

قلت بصوت مرتعش: «أبي... أنا فخورة بك، وأحبك  
كثيرًا.»

ثم نظرت إلى أمي.  
«وأنتِ أيضًا يا أمي.»  
ابتسمت لي.

ذلك النوع من الابتسامات التي تشعرُك بأنك كنت  
دائمًا في المكان الصحيح، حتى لو قضيت وقتًا طويلًا  
تائها.

أردت أن أقول المزيد.  
أردت أن أقول إنني آسفة.  
لكنني لم أملك الوقت.

قلت لهما: «يجب أن أذهب سريعًا لرؤية آدم، لن  
أتأخر.»

لم أكن أعرف لماذا، لكنني شعرت بشيء ثقيل في  
صدري وأنا أقول تلك الكلمات.

كنت أعلم وأجهل في الوقت ذاته حقيقة ما سيحدث لي.

شعرت بأنني لن أعود.

لكنني لم أكن متأكدة.

لم أعد أثق بذاكرتي.

كيف يمكنني الوثوق بشيء خدعني كل هذه المدة؟

ربما ستخدعني مجددًا.

ربما ستشوه الحقيقة كما فعلت سابقًا.

عشت لفترة طويلة داخل مخاوفي، داخل دوامة من الحكايات والذكريات التي لم تكن سوى انعكاس لكل ما أخشاه، أخذ عقلي مخاوفي الصغيرة وتركها تكبر، استغل كل نقطة ضعف داخلي، وكل شك، وكل خوف، حتى جعلها تبدو أكثر واقعية من الحقيقة نفسها.

كان يعرفني جيدًا.

أكثر مما أعرف نفسي.

ولهذا استطاع أن يخدعني.

خرجت من المنزل، وفي كل خطوة كنت أتجه بها نحو آدم، كنت أشعر باقتراب النهاية.

ربما لأنني عشت هذه اللحظة من قبل.

أو ربما لأن عقلي ما زال يخيفني ويتلاعب بي.  
وصلت إلى المكان.

رأيته على الضفة المقابلة للحديقة، كان يقف هناك ويمسك علبة صغيرة في يده.

لم ينتبه لوجودي بعد.  
وقفت أتأمله.

وللمرة الأولى شعرت بأنني أرى شيئاً لم ألاحظه سابقاً.  
تفاصيل صغيرة.

نظرات مختلفة.

حركات لم أنتبه لها.

كان الأمر وكأنني أراه للمرة الأولى.

ثم شككت بكل شيء مجددًا.  
هل سيتقدم آدم للزواج مني؟  
هل تزوجته بالفعل؟  
هل هذه ذكرى؟  
أم أنني أتخيل كل شيء مرة أخرى؟  
انتبه لي آدم.  
أخفى العلبة خلف ظهره بسرعة، ثم لوح لي بيده.  
كانت ابتسامته الجميلة تعتلي وجهه.  
توقفت للحظة.  
هذه الابتسامة.  
هي الشيء الوحيد الذي لم أشك فيه يومًا.  
الحب الذي حاول عقلي تشويهه لم يكن وهمًا.  
لم يكن كذبة.  
كان حقيقة.  
أشد وأصدق حقيقة.

سقطت دمعة من عيني.  
لكنها لم تعانق خدي ككل مرة.  
سقطت مباشرة على الأرض.  
وربما للمرة الأولى لم تكن دمعة حزن.  
بدأت أعبّر الطريق نحوه.  
خطوة.  
ثم خطوة أخرى.  
وفي تلك اللحظة...  
عاد صوت البوق.  
ذلك الصوت الذي أعرفه.  
ذلك الصوت الذي سمعت صداه في أعماق رأسي.  
رفعت عيني.  
رأيت ملامح آدم تتغير.  
الخوف.  
الذعر.  
سمعته يصرخ باسمي.  
«سيلين!»

ثم...

ظلام دامس.

ضوء ضعيف بدأ يتوهج في مكان بعيد.

حاولت فتح عيني.

في البداية كان كل شيء ضبابيًا، ثم بدأت الرؤية

تتحسن ببطء.

وجوه.

كنت أعرف هذه الوجوه.

أمي.

أبي.

آدم.

كانوا جميعًا هناك.

وكانوا سعداء.

سعداء لأنني استيقظت.

في تلك اللحظة فقط فهمت.  
أنا الآن استيقظت من الغيوبة.  
وكان هذا المشهد وحده كافيًا ليؤكد أي الحياتين  
كانت الحقيقة.  
الحياة الأولى كانت حياة صنعتها مخاوفي.  
والأخرى كانت ذكرياتي الحقيقية.  
حياة عشتها فعلًا قبل أن يتليني ذلك الظلام.  
عندما علقت داخل غيوبتي، لم يعد عقلي مجرد  
عقل يحتفظ بالذكريات.  
أصبح عالمًا كاملاً.  
مرة وضعني داخل مخاوفي.  
ومرة أعادني إلى ذكرياتي.  
مرة جعلني أكره من أحبوني.  
ومرة جعلني أتذكركم كنت محبوبه.

استتزفني عقلي.

وقسا عليّ.

وأخافني.

وألمني.

وتلاعب بي.

لكنه في النهاية...

رحمني.

أشفق عليّ.

وأعاد إليّ الحقيقة قبل أن أذهب بلا عودة.

كم تمنيت أن أنهض لأودعهم.

أن أعتذر عن تصديقي لمخاوفي المكبوتة.

عن سوء ظني بهم.

عن كل لحظة كرهتهم فيها بسبب أشياء لم تحدث

كما ظننت.

كم تمنيت أن أعانقهم.

أن أخبرهم كم أحبهم.

لكنني كنت عاجزة.

كنت أعلم أن هذه ربما تكون آخر لقطة سيحتفظ بها عقلي عنهم.

وجوههم المبتسمة.

وجوههم التي عاد إليها الأمل.

كان يؤلمني أن أعرف أن تلك الابتسامات قد تختفي بعد دقائق، وأني قد لا أكون موجودة لأراها تعود مجددًا.

ابتسمت لهم للمرة الأخيرة.

حاولت أن أتكلم.

حاولت كثيرًا.

لكن لساني لم يستجب.

وجسدي لم يعد لي.

فقلت في داخلي:

شكرًا يا عقلي.

شكرًا لأنك لم تأخذني قبل أن تعيد إليّ الحقيقة.

شكرًا لأنك حفظت لي هذه اللحظة.

فأرجوك...

لا تشوهها مجددًا.

أغمضت سيلين عينيها هذه المرة.  
ولم تكن تعرف إن كانت ستفتحهما مجددًا.  
لكنها لم تكن خائفة كما كانت.  
فالإنسان يعيش حياته مرة واحدة، وما عاشته  
سيلين داخل غيوبتها لم يكن سوى رحلتين داخل  
ذاتها؛ رحلة صنعتها مخاوفها، وذكريات شوّهها  
الألم حتى بدت كأنها الحقيقة، ورحلة أخرى  
أعادتها إلى ما عاشته فعلًا، إلى الأشخاص الذين  
أحبوها، وإلى الحياة التي كادت تفقدها وهي لا  
تعرف قيمتها.

ومن المؤسف أنها في كل مرة شعرت فيها  
بالتشوش داخل عالمها الأول، كانت تظن أنها  
متعبة أو منهكة، بينما كان جسدها يحاول أن  
يعيدها إلى الحقيقة.

وفي كل مرة احتضنتها أمها وشعرت بذلك  
الاستغراب المريب الذي لم تفهم سببه، لم تكن  
تعرف أن ذلك الشعور لم يأت من فراغ.  
ففي مكان آخر...

في الواقع...  
كانت أمها تحتضن جسدها فعلاً.  
في النهاية، لم تغادر سيلين وهي تحمل الحقد  
والحزن في قلبها تجاه من أحببتهم ومن أحبوها.  
بل غادرت وهي تعرف الحقيقة.

حملت معها الندم لأنها صدقت مخاوفها  
أكثر مما صدقت الحب الذي أحاط بها، لكنها  
حملت أيضًا شيئًا أجمل.  
الامتحان.

امتحان لأنها رأت الحقيقة قبل أن تفارقهم.  
امتحان لأنها عرفت أنها كانت محبوبة.  
وأن بعض الوحوش التي نقضي عمرنا نهرب  
منها، لم تكن موجودة حولنا يومًا...  
بل كانت تختبئ داخلنا.

فالعقل قادر على أن يصنع للإنسان عالمًا  
كاملاً، وأن يمنحه ذكريات لم يعيشها، وأن  
يشوه حقيقة عاشها، وأن يجعله يهرب ممن  
يحبهم خوفاً من ألم لم يحدث.  
لكنه، مهما قسا وتلاعب وخدع، قد يعيد إلينا  
الحقيقة في اللحظة التي نحتاجها فيها أكثر  
من أي وقت مضى.

وربما كانت رحمة عقل سيلين الأخيرة أنه  
جعلها تعيش ألف خوف، فقط كي لا تغادر  
وهي تصدق واحداً منها.  
فأغمضت عينيها للمرة الأخيرة، بعدما عرفت  
أخيراً أن الحقيقة لم تكن الحياة التي خافت  
منها...

بل الحياة التي أحببتها، ولم تتذكرها إلا بعد  
فوات الألوان.

النهاية

